حول الترجمة وبعض جدلها

سالم المشهور

يكاد يجمع أهل الاختصاص على أن حركة الترجمة هي أحد شروط نهضة العلوم عند أي أمة، وفي الوقت ذاته هناك إجماع على أنّ واقع الترجمة في الوطن العربي دون المأمول، فجهود الترجمة ما زالت ضعيفة ومشتتة، ويغلب عليها الفردية، وفي المقابل لقد أظهرت الدراسات والإحصائيات أن الدول الغربية وبعض الدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية، تُترجم أضعاف ما تُنتج محلياً، وهناك إحصائيات أخرى أظهرت أن نسبة ما يُترجم من الكتب في بعض الدول المتقدمة تُساوي ثمانين بالمائة من الإنتاج الإجمالي للكتاب عندها، إنها أرقام مخيفة، تُبين حجم الفجوة العلمية والحضارية بيننا وبين العالم المتحضر.

ولو قمنا بإلقاء نظرة على تاريخنا لوجدنا أننا كنا قادة البشرية في حركة الترجمة، وكنّا حلقة الوصل الحضاري، والسبب الذي حفظ علوم الأوائل، فقد قام العرب بترجمة علوم اليونان من فلسفة وطب وحكمة ورياضيات، وترجموا علوم الهند والفرس، وأدى هذا كله إلى انفجار معرفي لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم القديم .

في مقاله «الترجمة لغة المتعدد» تحدث الدكتور منذر عياشي في مجلة التسامح عن الترجمة من عدّة جوانب واستفتح مقاله بالحديث عن أهمية الترجمة، فهو يرى أنّ الترجمة في كل الحضارات آية دالّة على عظمة الاختلاف، وروعة التنوع، وسبيلٌ هاد إلى الثراء والاغتناء، وجسرٌ واصلٌ بين الأمم والثقافات، بالإضافة إلى كون الترجمة جزءاً من المشروع الحضاري؛ لأنها وسيط بين الحضارات. وهو يرى كذلك أنّ الترجمة أغنت اللغات بمادة تعبيرية وأسلوبية وتركيبية، ناهيك عن كونها جسر تواصل بين البشر؛ لذلك فلا عجب أن نرى كل الدول المتقدمة تتّجه نحو الترجمة بكل أشكالها وفي كل الميادين .

١- عوائق الترجمة في الوطن العربي

«إذا أردنا أن نتكلم عن أول المعوقات التي تقف سداً منيعاً أمام الترجمة فيُمكننا أن نقول: إنّ الأمة التي دُمرت مكوناتها الحضارية لا تستطيع أن تُنجز علماً ولا ترجمةً تكون وسيطاً بين العلوم والحضارات - هكذا يفتتح عياشي حديثه عن عوائق الترجمة - ثم يُكمل حديثه فيقول : إنّ الإحساس بالدونية يسود الأمم التي تتخلّف عن ركب الحضارة، وإنّ هذا الإحساس ليعم حتى يُصيب كل تطلعاتها، وإذ ذاك تُصاب الأمة بالإحباط وتُجهض مشاريعها العلمية .

وأزعم أنّ هذا السبب هو أساس المشكلة التي تُواجه مشاريع الترجمة، بل هذا السبب هو الداء العضال الذي عطّل كل نشاط عربي يهدف إلى التقدم والرفعة.. إنّ الهزيمة النفسية التي نُعاني منها جعلتنا نحتقر ذواتنا ونعتقد أن «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان».

وليس هذا السبب هو السبب الوحيد الذي أورده الدكتور عياشي، فهناك مجموعة أسباب أخرى، أهمها:

١- النظرة الدونية للترجمة، فما زال الكثير من العرب من المختصين وغيرهم ينظرون إلى الترجمة بوصفها نتاجاً دون التأليف قيمة، والمُترجم ما زال يُنظر إليه دون المؤلف! مع أنّ الترجمة هي الأصل الذي يقع في صميم كل عمل إبداعي ؛ لأنها أداة المبدع في ترجمة فكره إلى لغة أخرى فيها يتم تسجيل إبداعه، وفيها يتم امتحان هذا الإبداع ومدى قابليته لكي يكون فعلاً تواصلياً .

٢- غياب المشروع الحضاري الذي يستنهض العقل العلمي، ومن آثار ذلك القطيعة مع الآخر، ورسوخ فكرة صراع الحضارات، عوضاً عن حوار الحضارات .

٣- المناخ السياسي العربي، ما زال في الغالب يتبنى اتجاه تقييد الحريات وتكثير الاحترازات الأمنية، وهذا قيّد الحركة البحثية في كل المجالات .

٤- العائق الاقتصادي، ولعلّه الأبرز ؛ فالبحث العلمي يتطلّب دعماً مالياً هائلاً، وهذا الدعم إما أن يأتي من الحكومات وإمّا من «الرأسمال الخاص»، والمشكلة أن الطرف الأول كما يرى الدكتور منذر، مشغول بالإنفاق في أمور أخرى، ولعلّ المجال العلمي آخر اهتماماته، وأما القطاع الخاص، فهو تقليدي لم يعرف من الحداثة إلا قشورها، فهو لا يزال يعمل في الوطن العربي بعقل القرن التاسع عشر، فعقلية المستثمر العربي -للأسف- لا تؤمن بالاستثمار في مراكز البحث العلمي، قدر إيمانها بالاستثمار في مواد عينية قابلة للبيع مباشرة في السوق، الحقيقة المرّة أنّ المستثمر العربي لا يهتم بالثقافة والفكر، حاله في هذا حال جماهير الأمة العربية، والخارجون على هذا النمط هم من القلّة بمكان، يُشار إليهم بالبنان .

٢- الجامعات ودورها في حركة الترجمة

الجامعات بوصفها معاقل العلم والمعرفة ومصانع الفكر والثقافة، ينتظر منها كثير بأن تقوم بأدوار ريادية في قيادة عجلة الترجمة وإحياء سوقها الكاسد. ولكن هل من العدل والموضوعية تحميل الجامعات هذه المسؤولية بمعزل عن بقية المؤسسات المعنية بالثقافة؟

ما الذي تستطيع أن تُقدمه الجامعات في عالمنا العربي لحركة الترجمة؟

يرى الدكتور عياشي أنّ الجامعات في عالمنا العربي تستطيع بإمكانات أطرها العلمية أن تضع مشروعاً متكاملاً للترجمة، كما أنّها تستطيع أن ترسم خطوات علمية وإجرائية لإدخال هذا المشروع في حيّز التنفيذ .

ومن أجل تنشيط حركة الترجمة وإخراجها من سكونها، اقترح الدكتور عياشي مجموعة من المقترحات التي قدمها بوصفها «جملة الشروط المواكبة أو المتصلة بعملية الترجمة» ومنها :أن تحتسب الترجمة مادة للترقية العلمية، وأن يُحتفى بالمادة المترجمة بوصفها إنتاجاً أصيلاً وليس بوصفها مادة من الدرجة الثانية، وأن تُعتمد المواد المترجمة بوصفها مواداً أساسية في التدريس، وأن تُخصص مكافآت مالية مجزئة لكل ترجمة، بالإضافة إلى نشر العمل المترجم، وإقامة الندوات العلمية لمناقشة الأعمال المترجمة، وافتتاح أقسام خاصة بالترجمة في الجامعات العربية بمختلف اللغات. هذا بعض مما جاء في مقترحاته في هذا المجال .

٣- الترجمة بوصفها من المفاهيم القلقة

سأستعير مصطلحاً كان يكرره ويستخدمه الكاتب السعودي زكي الميلاد في كتاباته؛ لأعيد توظيفه في تجلية بعض القضايا الجدلية المعقدة حول الترجمة، والمصطلح هو «المفاهيم القلقة «في أغلب المنظومات الثقافية، القديمة والحديثة، هناك ما يُمكن أن نُسميه «المفاهيم القلقة»، وهي التي تتصف بطابع جدلي وإشكالي عادة، وتتعدّد حولها الاجتهادات، وتختلف بشأنها وجهات النظر .وهنا يبرز هذا السؤال: هل الترجمة من «المفاهيم القلقة»؟

للجواب على هذا السؤال، من المستحسن عدم إهمال تسليط الضوء على جدلية الكتابة والبعد الفلسفي فيها، فما الترجمة إلا شكل من أشكال الكتابة المعقدة، وهذا ما سيتضح أكثر في تكملة المقال .ما الذي يحصل في لحظة الكتابة؟ كيف يتجسد وحي الأفكار في حروف مسطورة؟ يرى الدكتور عياشي أن لحظة الكتابة لحظة معقدة، ففيها تتحرك قوى متعددة، بشدة أحياناً وبمكر أحياناً أخرى، لتترك بصمتها على المكتوب لحظة إنجازه، ولكن المكتوب لا يستسلم، بل يُمارس عليها تحويلاً لا يقلّ عنها شدة ومكراً، ويُصيّرها شيئاً من أشيائه، حتى لا يملك الناظر إزاءه إلا أن يقول :

أن ليس في النصّ سوى النصّ، أو ليس في الكتابة سوى الكتابة .ثمّ يخرج بنتيجة من كلامه المتقدم، فيقول :

«الكتابة، إذن كائنٌ شديد التعقيد». وكما يرى الدكتور عياشي فالترجمة هي بديل آخر للقراءة، وهي أيضاً بديل آخر للكتابة في الوقت نفسه، إنها « قراءة-كتابة » أو «كتابة-قراءة» . وممّا علق بذهني وأنا أقرأ حول الترجمة، قول أحد النقاد: الترجمة أصعب ممارسة لسانية! وهذه العبارة المختصرة تُعطينا المسوغ لعدّ «الترجمة» من «المفاهيم القلقة» وسنقوم الآن بتسليط الضوء على بعض مظاهر «قلق الترجمة» بما يسمح به حجم المقال .

ما هي الترجمة ؟ يرى اللساني الكبير هوجورج مونان أنّ الترجمة ليست إلا تماساً بين لغتين، ويُقرّر ثانياً أنّ مزدوج اللغة هو المترجم، وأنه بسبب هذا يُعد «مكان التماس بين لغتين أو أكثر، ويُقرّر ثالثاً أنّ «تأثيرات اللغة التي يُترجمها في اللغة التي يُترجم بها، يُمكن الوقوف عليها عن طريق التشابكات الخاصة .و التي تُمثل - من وجهة نظره - في هذه الحالة ضلالات أو أخطاء في الترجمة .و في الردّ على آراء مونان يقول عياشي :إنّ النص الأدبي في لغته الأولى، يؤسس معماره الخاص: لغة وموضوعاً، ولقد يدلّ هذا أنه لا يُمثل إلا حقيقة نفسه، ولا يتطابق مع أي شيء سواه .يرى الدكتور عياشي أن الترجمة فعالية مُزدوجة، لا بين لغتين فقط، بل أيضاً بين فعلين وهما: فعالية فعل «القراءة» وفعالية فعل «الكتابة» ؛ ولذلك فهي تُعدّ «قراءة-كتابة» أو «كتابة-قراءة» تبعاً للفعالية التي نُمارسها .

وهنا يثور هذا السؤال: هل علم المرء بلغتين يتصل ضرورة بهذه الممارسة؟ هل ازدواجية اللغة شيء، والترجمة شيء آخر؟ أفلا يُمكن للترجمة أن تكون كتابة ثانية لنصّ أنجزه فعل القراءة فيها؟ وبالمقابل أفلا يُمكن للترجمة أن تكون قراءة ثانية لنصّ أنجزه فعل الكتابة فيها؟

هذا السيل من الأسئلة التي يمطرنا بها الدكتور عياشي، يُثبت لنا أن الترجمة تستحق بجدارة أن نُدرجها في «المفاهيم القلقة «.

أختم مقالي بهذا التعليق الأخير : لم يستطع عياشي أن يُغلق القول في جدليات الترجمة، وما كان كلامه في الترجمة إلا سبباً في زيادة الجدل حول الترجمة وما يتعلّق بها، إنّ الترجمة هي قلب الفلسفة، فاللغات تحمل كلام الله وتحمل خلاصة التاريخ الإنساني، والكلام في مثل هذه المجردات لا يزيدها إلا اشتعالاً وقلقاً، ولكني أحسب أنه استطاع أن يُقارب الموضوع مقاربة جيدة، تُحرّك القارئ إلى مزيد من البحث في هذا الموضوع القلق .

almashoor1000@gmail.com